أنا خير رغم القهر

"سيرة ذاتية من مدارك القهر إلى مدارج النجاح"

د. خير سليمان شواهين

قال الله تعالى :

وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

سورة الشوري

أي ولمن انتصر ممن ظلمه من بعد ظلمه له فأولئك ما عليهم من مؤاخذة, إنما المؤاخذة على الذين يتعدون على الناس ظلما وعدوانا, ويتجاوزون الحد الذي أباحه لهم ربهم إلى ما لم يأذن لهم فيه، فيفسدون في الأرض بغير الحق, أولئك لهم يوم القيامة عذاب مؤلم موجع.

التفسير الميسر

احرص على طباعة ونشر هذه الورقة

دعوة الورقة

فالدال على الخير كفاعله
ALBETAQA.SITE

بسبب نقص بضع سنتمترات في طولي، عائلتي المغرورة اعتبرته عارا، وما زالت، رغم ما وصلت إليه من نجاح.
في روايتي الفينيق وبيت العنكبوت، كتبت مسار حياتي، ولم أتوقّف طويلا عند الظلم الذي عشته، ولأني ما زلت لم أتخلّص من شروره, كتبت هذا الكتاب.

القمل والمبيد الحشري على راسي

افكر بتأليف كتاب تنمية بشرية رقمي مبني على قصصي الشخصية المؤلمة، وتحويل الألم إلى إنجاز وإنارة، وهذا مثال حقيقي:

"ذلك الرأس المملوء قملًا... صار اليوم مصنعًا للأفكار"

ما زلتُ أذكر رؤوس الأطفال من حولي:

شعورٌ نظيفةٌ لامعة، يحمّمونها كل صباح ومساء، بأيدٍ حنونة، بماء دافئ.

أما أنا، فكنت أملك فقط رغبة دائمة في الدفء والنظافة ..وفي رأس لا يلدغني طوال الليل.

كان القمل يحتفل فوق رأسي كما يشاء، وأنا أطفو بين لسعاته وبين صمتي،

وإذا حصلتُ على بعض الماء الفاتر، فقد كان ذلك عيدًا.

أما السخان الكهربائي... فلم يكن جزءًا من حياتنا، بل من قصص غيرنا...

واحتاج لكثير من الذل لتسخن لي امي بعض الماء

وذات شتاء، حصلتُ على قبعة صوفية بنية قديمة.. ظننتها كنزًا، لكنها كانت غطاءً يخفي رأسي والمبيد، لا رأسي المفكر.

كانوا يرشون على شعري مادة اسمها "أكروسايد"، مبيد حشري زراعي قوي للقمل.. وأذهب للمدرسة وأتفوق.

أشمّه، أختنق منه، وأمشي نحو المدرسة، برأسي الثقيل، وملامحي المخنوقة

وهم يضحكون، يتهامسون، يسخرون عندما اقوم تمشيط الشعر، وسقوط القمل

وأنا... لم أضحك.

لكني كنت أحلم.

رغم الألم... لم أختبئ.
رغم الرائحة... رفعت رأسي.
رغم القمل... لم أنزل عيني عن السبورة.
ذلك الرأس الذي سكنه القمل، سكنته لاحقًا مئات الأفكار والكتب والاختراعات.
ذلك الجبين الملوث بالمُبيد... صار منصة للعلم، للكتابة، للثقة.
أنا لم أخرج من قصر، بل من قهرٍ.
ولم يكن لديّ ترف الاختيار، لكني اخترتُ أن لا أكون ضحية.
ولهذا أكتب الآن هذا الكتاب...
لكل من سُخر منه...
لكل من نام وفي قلبه رغبة لم تجد حضنًا...
لكل رأسٍ امتلأ قملًا... يمكن أن يمتلئ فكرةً.

"جناحٌ ورقبة... وغذاء لعقلٍ جائع"

كان يوم الجمعة عند كثير من البيوت يوم الدلال...

يُطهى الدجاج، وتتوزع القطع، وتعلو أصوات الضحك على المائدة.

أما عندنا، فكانت العائلة صغيرة، والدجاجتان كبيرتان...

لكن نصيبي كان جناحًا، ورقبة، ورأس دجاجة.

هكذا كان يُكتب لي أن أراقب التقاسم بصمت.

لم أجرؤ على السؤال: لماذا هذا لي فقط؟

لم أكن أملك رفاهية الاعتراض... كنت فقط أبتلع اللقمة وشيئًا من الغصّة معها.

ربما كانت تلك الراحة القسرية في البطن،

سببًا في أن يستيقظ جوعٌ آخر...

جوعٌ لا يُشبع باللحم، بل بالكلمات.

جوعٌ لا يَملأه الحساء، بل الكتب.

من الصف الخامس بدأت أقرأ كتبًا جامعية،

لم يكن أحد يتوقع ذلك من طفل يلتهم جناح دجاجة، ويجفف بقاياها بعينيه.

لكن الله، حين يحرمك من شيء...

قد يكون يمهّد الطريق لشيء أعظم.

لم أمتلئ بالطعام... فامتلأت بالمعرفة.

لم أشبع بالمذاق... فشَبعت من الفكر.

وربما، لو كنتُ مدلَّلًا في الأكل،

لما احتجتُ إلى أن أفتّش عن لذّة أخرى...

لذّة المعرفة، ولذّة النهوض من وجبة ناقصة إلى عقلٍ لا يشبع.

كنتُ أنظر للدجاجتين وأحسب:
كم عدد الأرجل؟ كم عدد الأجنحة؟
ثم بدأت أحسب أشياء أكبر:
كم فكرة يمكن أن تُكتب؟ كم كتاب يمكن أن يُفهم؟
ثم بدأت أكتب... وأقرأ... وأخطط...
أريد أن أقول لكل من يشعر أن نصيبه في الحياة "جناح وفتات:"
لا تخف.
ربما يكون هذا الفتات هو المفتاح.
ربما تكون الرقبة التي أعطوك إياها... هي التي تُرشدك لترفع رأسك عاليًا يومًا.

"ربي ابنك ولو بقمع بيضة"!

كنت أعود من الدراسة متعبًا، منهكًا، جائعًا، فأجلس على الأرض لألتقط لقيمات تُسكِتُ جسدي الذي اعتاد الجوع أكثر مما اعتاد الراحة.

لم أطلب الكثير. لم أكن طماعًا يومًا.

لكنني كلما هممت أن أضع لقمة في فمي،

كانت تقف بقامتها الطويلة، أمام صغري، وتُطلق عبارتها الساخرة التي حفرتها الأيام في أعمق أعماقي:

"ربي ابنك ولو بقمع بيضة"!

هكذا كانت تراني.

صغيرًا، لا يستحق الاحترام.

طفلًا يجب أن يُربّى بالقمع، لا بالكلمة الطيبة.

إنسانًا لا يكبر إلا تحت وطأة الإهانة.

كنت أسمعها أمام إخوتي، أمام الضيوف، أمام جدران المنزل التي ما زالت تحفظ صدى قسوتها.

كأنني لا أستحق إلا التهكم... لا أُربّى، بل أُضرب. لا أُفهم، بل أُقمع.

يا الله، كم كان ذلك يؤلم.

لكنني لم أردّ يومًا.

كنت أبلع القهر كما أبلع الخبز اليابس.

كنت أنظر إلى البيضة التي لم يُسمح لي أن أمسكها... وأقول في قلبي: "سأُخرج من رأسي ما هو أثمن من كل موائدكم".

أقسم أنني لم أحمل في قلبي حقدًا...

لكنني حملت تصميمًا، عنادًا شريفًا، إصرارًا على أن هذا الرأس الصغير المهان، سيكبر ذات يوم، ليعلو على كل من ظنه بلا قيمة.

وبعد سنوات...

لم أعد قمع بيضة.

صرتُ أنا الذي ينتج كنوز الفكر.

لم أعد ذاك الصغير الجالس على الأرض.

بل وقفت، وكتبت، وعلّمت، وألّفت، واخترعت،

حتى صار اسمي يُتداول في مجالس العلم.

حتى صارت كتبي تُدرّس، وأفكاري تُناقش، وأبحاثي تُحترم.

وأولئك الذين كانوا يرونني مجرد حشرة...

رأوني اليوم نسرًا يحلّق في سماء المجد.

فينيقا يطير من الرماد

لم أردّ بالكلام، بل بالعلم.

لم أصرخ، بل كتبت.

لم أُهِن كما أُهنت، بل بنيت ما يُبهر.

العبارة ذاتها التي كانت تطعنني، صارت وقودي.

"ربي ابنك ولو بقمع بيضة..."

حسنًا، رُبّيتُ بقمع القهر... لكنني خرجت منه نبتة صلبة، وعلَمًا شامخًا.

رغم انوفكم

أبقى محروماً... حتى في أحلامي

في تلك الليالي الباردة، لم يكن لي فراشٌ حقيقي، ولا غطاءٌ يضمن لي أن أستيقظ في نفس المكان الذي نمت فيه.

كل ما كنت أنام عليه قطعتان باليتان، لا تثبتان تحتي... تنزلقان، فأجد نفسي مرميًّا على الأرض، مفكك المفاصل، عظمًا على حجر، طفلاً على أرض قاسية.

أخي الأصغر ينام على فرشة، تحت غطاء دافئ.

أما أنا... فقد كنت محروماً حتى من أن أغمض عيني دون قلق.

في لحظةٍ خُلّدَت في ذاكرتي،

أشفقت عليّ زوجة أبي، وأعطتني جاعد خروف، دافئًا كأنفاس الرحمة.

فرحتُ به... احتضنته كما لو كان حضنًا بشريًا افتقدته كثيرًا.

لكن أمي، كعادتها، لم تقبل لي أن أستريح.

انتزعت الجاعد من تحت جسدي النحيل، بقسوةٍ تعرفها جيدًا،

وأعادته لضرتها، وقالت عبارتها التي أحفظ نبرتها حتى اليوم:

"شكله ليس جميلا "

هي تقصد أن منظره بغيض فقط لأنه تحتي

نعم... حتى الحلم كان محرمًا عليّ.

كنت أصحو على الأرض، مكسورًا، متجمدًا، بلا غطاء، بلا دفء،

لكن شيئًا ما في داخلي كان يقول:

"لن أبقى هنا إلى الأبد".

❄️القسوة التي نزلت على عظامي مثل الجليد...

كانت تُكَوِّن في داخلي جسمًا يتحمّل أقسى الألم.

والحرمان الذي سرق النوم من عيني...

أيقظ في داخلي عقلاً يعمل باستمرار... لحمايتي من الانهيار.
كنت أرتجف من البرد، لكنّ أفكاري كانت مشتعلة.
كنت أحلم بغطاء، لكنني غطّيت نفسي بالقراءة.
كنت أنام على الأرض، لكنني كنت أرى السماء من هناك.
كل سقطة من الفراش... كانت ترفعني علمًا في المستقبل.
لا أحد يتخيل أن الطفل الذي نام على الأرض وبكى بردًا،
هو نفسه الذي يؤلف اليوم كتبًا تلامس عقول الكبار.
نعم، لقد حرموني من الغطاء...
لكنهم لم يستطيعوا حرماني من الإرادة.
لم يكن لي سرير... فبنيت منصة علم.
لم يكن لي دثار... فغلفت نفسي بالمعرفة.
لم يكن لي صدر أضع رأسي عليه... فوضعت رأسي على الورق،
وكتبت، وفهمت، وعلّمت.
لا بأس... فقد تعلمتُ أن أكون دافئًا من الداخل.
وإن كانوا قد أرادوني أن أبقى محرومًا حتى في أحلامي،
فقد صرتُ حلمًا يتحقق لأجيالٍ بأكملها.

برد الأمس.. ودفء النجاح

كنت كنت في الصف الخامس, مريضًا بالإنفلونزا، وعُطلت عن المدرسة. لم اخذ الدواء، ولا عرفت الراحة، بل أذكر ملابسي الباردة، وحذائي البلاستيكي بلا جوارب.

في بيوت الناس، المرض عذر للحنان، أما في بيتنا فكان المرض سببًا إضافيًا للعقاب.

أمي لم تشعل المدفأة. قالت: "لا يوجد غيرك!" كأن الدفء لا يُمنح إلا إذا امتلأ المكان بالناس.

جلستُ عند زوجة أبي المسكينة، مدفأتها صينية صغيرة بفتائل خجولة، لكنها كانت تصارع البرد مثلنا.

فجأة، جاءت أمي بسطل ماء كبير، ووضعته فوق نار المدفأة، فكتم كل ما تبقى من دفء. نظرت إليها، ثم نظرت إلى زوجة أبي، نظرة صامتة حزينة. لم ننطق. فقط اقتربنا من بعضنا، نتبادل ما تبقى من حرارة البشر، لا حرارة النار.

كان عندها مدفأة أكبر، وموقد غاز في المطبخ، لكنها آثرت أن تراني أتألم. قهر ناعم لا يُكتب في تقارير الشرطة، لكنه يترك ندبة لا تشفى بسهولة.

سنوات مرت. لم أنسَ ذلك البرد. ظل يرافقني كظل ثقيل في ليالي الشتاء الطويلة. لكن الغريب أنني لم أكره الناس، ولا العالم. تعلمت أن أكون دافئًا للآخرين، لأني كنت أعرف ماذا يعني البرد.

واليوم، عندي في بيتي فراش وثير ودافئ والحمد لله, وحتى عندما أجلس في الفراش الوثير الفاخر، في فنادق الخمس نجوم، حيث يستضيفني من يبحث عن علم أو إلهام، لا أنسى البرد القديم. لا أنساه، لكني لا أعيش فيه. ما زلت

ألبس تواضعي كمعطف، فهو أدفأ من كل شيء، وأُقسم أني سأبقى كذلك ما حييت, بإذن الله

من تحت نعال القهر- إلى أجنحة التمكين

قالها أخي من أمّي وأبي دون أن يرتجف له قلب أو يرمش له جفن:
"أنا يجب أن أحصل على إعفاء من الخدمة العسكرية، فأنا وحيد والدتي... أما أنت، فلا تُحسب بني آدم".
قالها وألقى بي خارج التصنيف الإنساني، كأنني لا أستحق حتى الإشارة إلى وجودي.
لم يحتج أن يشرح... هو يعلم، وأعلم، أن أحدًا من العائلة لن يردعه، ولن يقول له: "كفى"!
ابتسمت، لا سخرية، بل تسليمًا... وتسليم المؤمنين لا يعني الهزيمة، بل انتظار وعد الله.

عامان أنفقت عليه فيهما... وعلى زوجته.. من جيبي.. لعلّه يقتنع أن من حقي الحياة... بدون فائدة..
كنت الجدار الصامت، لا يُشكر ولا يُرى.
لكنني لم أكن أبحث عن كلمة شكر... كنت أبحث عن ذاتي.

مرت الأيام، واشتد الألم، لكنه كان يشدّني إلى الأعلى.
لم أبكِ في العلن، ولم ألعن في السر... بل كتبت، وتعلمت، وسهرت، وتعبت...

ونمت على نية النهوض.

واليوم... هو نكرة، يختبئ خلف الأعذار والتبريرات،
أما أنا، فأقف شامخًا، لا لأنني انتقمت، بل لأنني نهضت.

أصبحتُ إنسانًا... بل قدوة.
يُشار إليّ بالبنان، لا لأنني وُلدت في حضن القوة،
بل لأنني صنعت من قهري جسرًا، ومن تجاهلهم منصة،
ومن إيماني بالله مهبطًا للفرح والتمكين.

"لأنك ما عندك أولاد"... قالها ومشى

كنت لا أعود من سفر، إلا وقد حملت له الهدايا...
له، ولأبنائه الذين لم يذكروا اسمي يومًا.
لم أفعل ذلك من باب الواجب، بل من باب الوفاء، من باب أن تظل الأخوّة حيّة في داخلي، حتى إن ماتت في قلوبهم.
سافر هو للعمل في الخارج.
ولما عاد، ذهبت إليه، كعادتي...
ابتسمت وسلّمت، فبادلني بابتسامة باهتة وقال:
"أنا ما جبتلك هدية، لأنك ما عندك أولاد"!
يا الله...
ما أثقل الكلمة حين تقال كطعنة مغلّفة بالمزاح.
لم أطلب شيئًا، ولم أكن أنتظر شيئًا...
لكنها كانت لحظة اختزلت سنينًا من الصمت، والخذلان، والتجاهل.
كان يكفي لو أجبر خاطري بشيء صغير...
لوح شوكولاتة، قلم بسيط، أو حتى "شبشب بلاستيك" ...
لكنه اختار أن يُسقطني من حساباته، لأنني لا أملك "ذرية" في نظره.
واليوم...
لدي من الأبناء ما لا يحصيه العدّ،
أبناء من نور... من فكر... من حلم...
طلاب، قرّاء، متدربون... من كل الأعمار والأقطار.
كلّهم يرون فيّ أبًا، ومعلمًا، ومُلهمًا.
وقد وصلني منهم ما لم أحصل عليه من أهلي:

رسائل محبة، شهادات عرفان، وهدايا ثمينة...بل ثمينة جدا.
من قارات الأرض الخمس، ومن قلوبٍ تعرف معنى الكلمة الطيبة.
لم أعد بحاجة لهديته...
فالله، حين ينصف، لا يفعلها بصمت، بل يُسمعك وقع العدل في أعمق أعماقك.
وقد علّمني الله، أن "الولد" ليس فقط من لحم ودم...
بل من فكرةٍ ألهمت، أو روحٍ أنيرت، أو طريقٍ فتحت.

كنت في الابتدائي... وكان الطين أرحم من قلب أمي

كنت في الابتدائي... ولم يكن في البيت أحدٌ يشعر أني طفل.

لم يكن عندي معطف، ولا حقيبة، ولا حتى رأي.

أمي أرادت أن تذهب لامرأة تغربل لها القمح تسكن في حيٍ ضيق، سمعته سيئة، وأرادَت أن تأخذ معها طفلًا لتستر نفسها, حتى يساء لسمعتها...

فكنتُ أنا الغطاء.

لم تأخذ أحدًا سواي، لا لأنني الأقرب إلى قلبها، بل لأنني لا أُعترض ولا أُكلف كثيرًا, وتعرف أنني سأغرق في الطين..

سحبتني من يدي، وأنا ألبس "شبشبًا" بلاستيكيًا صغيرًا، غارقًا في الطين، والطريق زلق، وأنا أزلق في صمتي.

كنت أمشي خلفها... لا تحنو، لا تلتفت، لا تقول "احذر"، وكأنني ظلٌ لا يؤثر عليه شيء.

وفي زقاق ضيّق، جاء ولد أكبر مني، شرير النظرات، غليظ القلب، وقف أمامي وهو يحك أنفه بسبابته، يريد أن يضربني

لم أستطع أن أقول لأمي، فهي لا تُجيد التفريق بين من ظُلِم ومن أخطأ.

راقبت الولد بطرف عيني...

رفع رجله ليركلني، وكأنه يتدرّب على الضرب بدم بارد.

لحظتها، حدث شيء ما داخلي، شيء لا أعرفه، شيء يشبه الغضب الممزوج بالخوف...

أمسكت رجله بسرعة، وشددتُها للأعلى، فسقط على ظهره في بركة طين، كصرصارٍ انقلب على ظهره.

تطلّعت إلى أمي، لم تلتفت، كأن شيئًا لم يكن.
ومشيت معها وأنا أحمل في صدري أول انتصار، وأول درس: "الخوف لا يمنعك من الدفاع عن كرامتك، لكنه يعلّمك أن تختار وقتك جيدًا."
مرت سنوات كثيرة...
وصار ذلك الولد صاحب محل خضار كبير.
كلما رآني، يعطيني أجود ما عنده، بابتسامة عريضة،
ولم يقل شيئًا عن يوم الطين...
لكنه عرف... وعرفتُ أنا، أن من يحمي نفسه من السقوط في الوحل يومًا، قد يرتفع فوق الرؤوس غدًا.

ذلك الصباح الأسود... والفرج الذي نزل من السماء

كنت في العطلة الصيفية، بعد أن أنهيت الصف الخامس...

بيتُنا مفتوح، لا قفل ولا حماية، كما قلبي تمامًا: مكشوفٌ، ضعيف، لا أحد يحرسه.

جلست في فناء البيت، أعدّ أيام العطلة كما يُعدّ السجين أيام الإفراج،

لكنّي لم أكن مرتاحًا... فقد تسلّل ظلٌّ ثقيل إلى حوش الدار.

جاء ولد شرير... أسود العينين، بنيّ الجلد، رماديّ النظرة، كأن الله صبغ لونه من بقايا الوحوش.

كان بيت أهله على الطريق الموصل لمثلث "حوفا" المجاورة...

وقف عند الباب الحديدي، ينادي بصوت جريء لا يعرف الحياء:

"يا خير... تعال نضربك"!

وكأن الضرب لعبة، وكأن عمري لا يساوي شيئًا.

كان معه مجموعة من أشراره، يقهقهون ويشيرون،

وأنا أنظر لهم كأنني غزال محاصر من كل الجهات.

نظرت داخل البيت... لم يرَني أحد.

لم يسمعني أحد.

لم يسأل أحد: لماذا أنا صامت؟ لماذا لا ألعب؟ لماذا أتنفّس بخوف؟

لم أجرؤ أن أقول لعائلتي،

لأنني أعرف النتيجة: "بلا دلع!

لكنّهم لا يعرفون أن الضرب يُكسر، لا يقوّي،

وأن الطفل لا يحتاج إلى سلاح، بل إلى سند.

كان صباحًا أسودًا، يشبه وجه ذلك الولد تمامًا...

جلست في ظل الحائط أبكي، لا بصوت، بل بصمتٍ موجع.

قلت في قلبي: "يا رب... أبعدهم عني... خلّصني."
وكرّرت الدعاء كأنني طفل أضيع في زحام ...
في العصر... جاء الخبر.
الولد نفسه، في طريق عودته إلى بيته،
دعسته سيارة...
ومات... قبل أن تغرب الشمس.
سكتَ كل شيء.
وانتهى الخوف...
وغمرتني راحة لم أشعر بها من قبل، كأن السماء نفسها قالت لي: "لقد سمعتك."
من يومها...
كلما شعرت بالخوف، أو بالضعف، أو بالخذلان،
أتذكر ذلك اليوم...
وأحمد ربي،
الذي لا يحتاج صراخًا ليسمع،
ولا جيشًا لينقذ...
دعوة صادقة من قلب مكسور، تكفي.